المحاضرة الثالثة: الأوضاع العامة للجزائر في الفترة العثمانية

أولا: الاوضاع الاجتماعية للجزائر في العهد العثماني

– كان المجتمع منقســـما إلى طبقات: الطبقة الاولى والتي كانت من الاتراك الذين كانوا بضـــعة آلاف، أكثرهم بالعاصمة وبيدهم السلطة والامتيازات والثروة، أما الطبقة الثانية فتتشكل من الكراغلة والاندلسيون، وقد شكلوا مايشبه طبقة متوسـطة تحظى ببعض النفوذ والثراء، أما الطبقة الثالثة فتمثل عامة الناس والتي كانت عبارة عن قبائل منعزلة عن بعضـها ومتصـارعة، مهمشـا مفتقرا إلى موارد العيش الكافية، بالإضـافة إلى االيهود الذين احتكروا التجارة وسك النقود.

– أما عدد السكان فمعظم المؤرخين يقدرون عددهم بثلاثة ملايين نسمة في الفترة الأخيرة للحكم العثماني، أي بعد أن تعرضت البلاد لكثير من الأوبئة والكوارث الطبيعية مثل المجاعات والجراد.

– ظلت القبائل الجزائرية خلال الحكم العثماني تعيش صراعات دموية نتيجة السياسة التركية التي كانت تستهدف الحيلولة دون وحدتها لأن ذلك كان يشـــكل في اعتقاد أكثر الحكام الأتراك خطرا على وجودهم؛ الأمر الذي لم يحقق انصهار المجتمع في بوتقة واحدة مع الأتراك، وظل هذا المجتمع يعيش فرقة موحشة وعداوات قاتلة.

– تردت الأوضاع الصحية نظراً لغياب الوعي الصحي، وانعدام المستشفيات ومدارس الطب، وكثرة المستنقعات في بعض الجهات فانتشرت الأمراض؛ كالسل والجدري والجرب والأوبئة؛ كالطاعون الذي أصاب مدينة الجزائر وحدها 18 مرة خلال العهد العثماني وارتفعت نسبة الوفيات وانخفضت نسبة الزيادة الطبيعية ومعدل الأعمار، وكثيراً ما لجأ الناس إلى السحرة والمشعوذين والزيارات وحمل الأحجبة، ومع ذلك وجد عديد من الأطباء التقليديين المهرة في جبر كسور العظام وطب العيون وغير ذلك.

ثانيا: الأوضاع الاقتصادية في الجزائر العثمانية

– لم يكن للجزائر في عهد الأتراك اقتصاد مبني على أساس سليم يمكن تنميته بخطط ومشاريع زراعية أو صناعية. ولم يشجّع الأتراك أية حركة اقتصادية منتجة، ولم يوظفوا الثروات التي جنوها من الصراع البحري ضد المسيحيين ومن الضرائب والجبايات لتطوير البلاد وتنمية أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية.. بل اعتبروا الجزائر قاعدةً للغزو وحيازة الغنائم، ومصدراً لتحصيل الضرائب والمغارم.

– أما الصناعة فقد ازدهرت خلال المئة وخمسين سنة الأولى من العهد العثماني بفضل المهاجرين الأندلسيين الذين استصحبوا مهاراتهم الحرفية، وتمثلت في الصناعات اليدوية التي اشتهرت بها تلمسان وقسنطينة (دباغة، سروج، حُلي)، والجزائر (خلي، أحذية، وشواشي)، ومناطق جرجرة (حدادة، أسلحة، حُلي فضية والأطلس الصحراوي (برانس، زرابي، حصر) وغيرها، غير أن الصنائع تدهورت فيما بعد تحت ضغط الضرائب المتنوعة ومنافسة المصنوعات الأوروبية، وقلة الاستهلاك المحلي.

–لم تكن التجارة أحسن حالاً، لأسباب أهمها: قلة الإنتاج المحلي، واحتكارها من قبل الحكومة التي فرضت قيوداً شديدة على التصدير والدعاية الأجنبية التي أساءت إلى سمعة التجار الجزائريين، وكانت تتم أساسا مع دول أوروبا، ثم مع المغرب وتونس، والأقطار العثمانية المشرقية، وقد اعتمدت التجارة الخارجية على تصدير المنتجات الفلاحية والمواد الأولية كالصوف والجلود والشمع وريش النعام، واستيراد المواد الكمالية والترفيهية كالعطور والأقمشة القطنية والزليج والحرير والمجوهرات، والمواد الغذائية كالسكر والقهوة والتوابل، وبعض المصنوعات كالأسلحة والزجاج والمرايا.

– وكان من أسباب تدهور الاقتصاد الجزائر أنداك تقييد نشاطات الأسطول بفعل المعاهدات التي أبرمتها الجزائر مع الدول الأوربية ما بين 1616 و1796 لضمان أمن تجارتها في البحر المتوسط مقابل بعض الأموال، مما قلص عدد سفن الأسطول الجزائري، فانحسر بذلك دخل الجزائر من غنائم البحر انحسارا كبيراً.

– كان للجزائر عملة خاصة ذهبية وفضية، ونحاسية، تُضرب بدار السكة بالعاصمة باسم السلطان العثماني أساسها: السلطاني القديم 3.4 غرامات ذهب خالص)، والسلطاني الجديد (3.187 غرامات ذهب)، والبوجو (متوسط وزنه 10 غرامات فضة)، ونقود نحاسية.

ملحق 01: عملة عثمانية تم صكها في الجزائر

ثالثا: الحياة الثقافية في الجزائر العثمانية

– كانت الحياة الثقافية في ظل الحكم العثماني، خاصة طيلة القرنين الأولين من الحكم تعاني من الركود الثقافي، ذلك أنه قبل مجيء الأتراك، كانت معظم المدن الجزائرية تعيش حركة ثقافية وفكرية ودينية مزدهرة ومن تلك الحواضر تلمسان وقسنطينة وبجاية.

– كان لبعض الحكام الأتراك دور هام في تشجيع بناء المساجد والمدارس على سبيل المثال الباى محمد الكبير الذي جعل من مدينة معسكر عاصمة علمية كبيرة، أما أكثر الولاة الأتراك فقد كانت جهودهم متجهة إلى حركة الجهاد والتجارة والكسب البحري.

– بالنسبة لحركة التعليم فقد سارت سيرتها العادية ولم يحصل فيها تطور هام، ومع هذا فلا ننكر بأن مدنا مثل بجاية وتلمسان ومازونة وقسنطينة حافظت على التراث الفكري والثقافي، وواصلت سيرها في هذا الطريق ونبغ فيها علماء وشعراء ومثقفون كما أن مدينة الجزائر نمت فيها الحركة الفكرية وتطورت واتسع أفق الكثير من أبنائها حتى بلغوا منزلة عالية في كثير من الفنون الأدبية والعقلية واللغوية.

– كان التعليم في الغالب مقتصرا على الدراسات الدينية والأدبية في حين أهمل الجزائريون في العهد العثماني العلوم العقلية رغم أنهم اهتموا بها من قبل إلا أن دخول العثمانيين جعل علماء الجزائر يميلون أكثر إلى العلوم النقلية

– كانت اللغة العربية هي لغة الجمهور، بينما مثلت اللغة التركية اللغة الحكومية، أما الفرنسية فكانت شائعة بين القناصل الأجانب.

– من مميزات هذه الفترة انتشار الطرق الصوفية وكثرة الزوايا المخصصة لها، حيث تثبت الإحصاءات أن عدد الزوايا كان يفوق عدد المساجد والمدارس، كما أن هذه الزوايا أوجدت نوعا من التوازن التعليمي والثقافي بين الأرياف المدن، لكن ذلك لم يمنع من أن تكون نسبة التعليم في الأرياف أقل منها في المدن.

هذا وأوجد نظام الأوقاف نوعا من الوحدة الثقافية، وقد مثل المورد الأساسي للمدارس القرآنية والمعاهد والمساجد والمحاكم.

– إن أبرز مميزات الفترة العثمانية هي كثرة الطرق الصوفية التي اعتمدها بعض المتصوفة المنحرفين في نشر الخرافة والدجل، وكان همهم ادعاء الكرامات، وجمع المال والهدايا من الفقراء، واستغلال العامة ماليا، وابتعادهم تماما عن التصوف الحقيقي القائم على العلم والعمل به، والذي يستمد أصوله من الكتاب والسنة، فظاهرة التصوف المنحرف كان لها الأثر الكبير في انهيار المجتمع، وتسببت في ضياع العلم وغياب العقل، الشيء الذي أدى إلى

ظهور ثورة فكرية قادها بعض العلماء الذين انتصروا للتصوف الحقيقي، وسخروا جهودهم في محاربة الدجل والشعوذة التي مارسها كثير من الدجالين باسم التصوف أمثال الشيخ عبد الرحمان الاخضري وعبد الكريم الفكون وغيرهم.

– تميز الطابع المعماري في أواخر عهد الدايات بأنه مزيج من أذواق مختلفة، محلية وعثمانية شرقية وحتى أندلسية، نتج عنها دقة البناء والزخرفة واســـتعمال الرخام والنقوش بالعربية والتركية على الجدران وغيرها من ضـــروب الإبداع الفني، بحيث مثلت المساجد والزوايا والقصور والحصون جزءا كبيرا من هذا الفن المعماري.

ملحق 01: مسجد كتشاوة بالقصبة والذي يعود تاريخ بنائه إلى 1792م

ملحق 02: قصر أحمد باي بقسنطينة الذي شيد بين 1825 و1835 بحي القصبة العتيق.

ملحق رقم03: قصر رياس البحر الذي شيّد بأمر الحاكم العثماني للجزائر رمضان باشا سنة 1576م

ملحق 04: الجامع الجديد ويعود تاريخ تشييده إلى الفترة العثمانية، تحديدًا سنة 1660 في عهد الداي مصطفى باشا، وقد مزج بين الطراز البيزنطي والعثماني.